صاحبة قيس بن ذريح رمزا لله المعشوق ، وكان العاشق مجنونا ينتصر لاوعيه على وعيـــه .

يلاحظ دارس **بيت الجنون** ان هذه الرموز جميعا تتكرر في المسرحية ــ القصيدة . ولعل اصالة توفيق فياض تتبلور في استلهامه الرموز في صيغتها العربية من حيث هي العمود الفقري لعمله الادبي . فكانت لبنى حجر الزاوية في البناء المسرحي . ولم يكن الرمز المحوري في **بيت الجنون** بسيطا يمتد في بعد واحد ، بل استطاع فياض ان يصهر التنويعات المختلفة للرمز الواحد في جوهر الصـــورة المحورية . فكانت ايزيس اخت اوزيريس وعروسه ، وعشتروت ام تموز وعروسه ، والعذراء مريم ام المسيح وعروسه تنويعات مختلفة على حقيقة جوهرية واحدة هي لبنى عروس سامي وصورة امـــه . ويدمج فياض الاسطورة الاساسية للموت والانبعاث بتنويع آخر عليها هو اسطورة الارض اليباب . وتروي هذه الاسطورة قصة ارض حلت عليها اللعنة فسيطر تنين رهيب على منبع النهر الذي يرويها ومنع الماء عن الارض العطشى ، فحالت حقولها يبـــاسا وخرابا . ويطالب التنين صبية حسناء كل عام يقدمها سكان البلدة فدية . وتقف الصبية بانتظار الفارس المخلص الذي يقتل التنين ويتزوجها ، فيردّ الخصب الى الارض الخراب . وتعدّ هذه الاسطورة تنويعا على أسطورة الخضر في صورتها اليهودية المتمثلة في النبي ايليا ، وصورتها المسيحية المتمثلة في القديس جرجس وصورتها الاسلامية المتمثلة في موسى وفتى الله كما يظهران في سورة الكهف .

أفاد توفيق فياض من اسطورة الموت والانبعاث في كشفه مأساة فلسطين ، التي تمثلت له ارضا يبابا حلت عليها اللعنة يوم استولى عليهـــا الصهاينة . وتقف الارض منتظرة بطلا يخلصها من براثن التنين ويردّ اليها الحياة ويزرع في أحشائها بذرة تخصب . لكن الواقع المؤلم يعيد صياغة رؤيا فياض . فتختلط القيم وتغدو لبنى عروسه المحبة تنينا . فماذا يفعل الفارس ؟ لقد تحولت الام ــ مبدأ الحياة ــ اداة دمار . ويحاول البطل الهروب من الواقع بعوالم يخلقها خياله ما فوق الواقع فيحلم بلبنى المثال . فيقتل التنين في ذات لبنى ويبعث المثال . ويؤمن في لاوعيه ان لبنى ــ ليس كما هي بل كما يجب ان تكون ــ حية لم تمت .

تتخذ **بيت الجنون** اطارا لها ليلة من ليالي الشتاء العاصفة في بيت يقع بمحاذاة البحر . ويظهر رجل يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ، يرى مستغرقا في النوم ، ملقيا رأسه على ذراعيه فوق الطاولة . وينهض فجأة وهو يصرخ بفزع :

الكابوس ... هذا الكابوس الرهيب ! (متحسسا عنقه) مرة اخرى ! وكان أشباح الجحيم ، انتقلت جميعها الى هنا .. لتشاركني هذا القبر المتعفن ! (محركا عنقه) كادت اصابعه المتوحشة تخترق بلعومي .

تبدأ المسرحية ــ القصيدة في الجحيم ، فيظهر البطل سامي ميتا مدفونا في قبر متعفن ، تشاركه السكنى فيه أشباح رهيبة . وليس الجحيم هنا سوى ارض الواقع ، لذا فموت سامي ليس هو الموت بمعناه العادي بل هو موت في الحياة . لكـــن نموذج الانبعاث الهاجع في اللاوعي الانساني ينتصر على الموت فتتحد صورة سامي الذاتيـــة بصورة اوزيريس الاسطورية ، فيغدو انبعاث سامي حتميا حتمية انبعاث اوزيريس . فيقرأ سامي في كتاب التاريخ المفتوح أمامه :

انهض ، انهض يا اوزيريس !

أنا ولدك حوريس ..

جئت أعيد اليك الحياة ،

جئت أجمع عظامك .